فضل البكورية

للبكورية من قديم الزمان الى الان امتياز عظيم يمتاز به الابناء ويزهى به الآباء لان الى البكر ينتمي شرف الاسرة وبه تسود واليه تلقي مقاليدها وانكالها وهو المسئول دون سائر افرادها ولذلك لا نعجب اذا احتال يعقوب لان يشتري بكورية اخيه عيسو ولا نستغرب اقرار الانكليز على القاء الارث كله الى البكر من الاولاد

على ان امتياز البكورية على حسب ما يبدو من ظاهره يعد ظلماً او هو من قبيل مؤاتاة الحظ وموافقة البخت ولا سيما للاولاد الذين ينالهم النفع من هذا الامتياز كاولاد الملوك خاصة واولاد الانكليز عامة لان القاء الملك الى اكبر انجال الملك مما لا يبدو منه شيء من الحكمة اذ قد يكون من بعد البكر اشد منه ذكاء واتم ادراكاً او اجود منه صحة وامتن تركيباً واقدر على الاضطلاع باعباء الملك والقيام بمتاعبه ولذلك يعدون من حسن الرأي والتدبير ان يلقى الحكم الى اكبر من في الاسرة المالكة كما يفعل الخلفاء دون القائه الى اكبر الانجال كما يفعل ملوك الافرنج وذلك لان درجات الرشاد تتبع درجات السن وقد طالما كانوا في القديم يلقون تبعة الشبان على الشيوخ ويندبون الشيوخ للبعثات والسفارات وما نظن مجالس الشيوخ الموجودة الان في اوربا الا مأخوذة من ذلك النسق القديم

ولقد يعلم القراء ان الباحثين في هذا العهد ما تركوا شيئاً الا اوسعوه نقداً ولا غامضاً الا ملاوه وضوحاً. فلقد راقبوا الجانين مثلاً فوجدوا ان لهم اختصاصات من الطبيعة تدعوهم الى الجناية وليس كل انسان في مذهبهم يعد

جانياً بالاطلاق وراقبوا السكيرين واللصوص وكل ذي حالة نادرة بين الناس فوجدوهم قد خلقوا مخصوصين لذلك ولم تكن التربية او العادة الا عوناً لهم على ما اخذوا فيه دون ان تكون منشئة اياهم انشاء. ولقد راقبوا العلماء والشعراء والمصورين والكتاب وكل رجال الحكمة والعقل فوجدوا لهم حالات خصوصية قد انشأت عقولهم وميزتهم عن سواهم فقالوا ان الفقر بعموم حالاته مما ينشئ كبار الناس لانه ندر ان كان غني عالماً حاذقاً وان المزارع والقرى مما تولد رجال العقل والفلسفة اذ ندر ان صدر من مدينة فيلسوف او جاء من عاصمة عالم. ولهذا حكموا بان افضلية البكورية لا بد ان يكون لها من سبب

اما وجوه الافضلية ففير معروفة لديهم بالتمام ولكنهم وجدوا الافضلية كائنة على كل حال حتى ترجح لهم ان الانسان يقرب شيئاً من النبات من حيث نموه وجودته فان الثمر الذي ينتج من الشجرة في اول عهدها يكون على الاغلب اجود مما ينتج منها بعد ان تكبر وتصلب اعوادها وكذلك المرء الذي يكون اول مولود يكون اتم واجود ممن يولدون بعده وهذا كما قلنا يجري على حكم الارجحية دون حكم التعميم

اما مراقبة هذا الشأن في الناس كلهم فما لا يتفق الظفر به ولكن المرجح ان افضلية البكورية مطلقة بينهم على السواء بدليل ايثارهم لها من القديم واعتقادهم انها مصيبة صاحبها عن استحقاق بامتياز قوة قد اختص بها وليس عن مؤاتاة اقدار وموافقة حظوظ وهم اذا كانوا صادقين فيما يدعون للبكورية من الفضل فقد يكون ذلك من قبيل التعويد والتربية وليس من الخلقة الغريزية لان بكر الاسرة ينصرف اليه الجهد دون غيره من قبيل

المسرة به اذ كان اول قادم عليها فيخرج ذا فضل على اخوته . بل انه اذا كان الجهد منصرفاً اليه والى اخوته بالسواء فان كونه اكبرهم واسبقهم في العمر مما يهيئ له زيادة من العقل دونهم اذ اكانوا متساوين فيه بالخلقة لان زيادة السن انما هي زيادة عقل وتجربة . ولعل هذا هو الحكم الاصح في كون البكر مفضلاً على اخوته . على ان الباحثين الذين يعتمدون على المشاهدات والاقيسة والتقاويم يقولون انه لا يعد من عظماء العالم اثنا عشر عظيماً حتى يشاهد ان نصفهم او اكثر قد كانوا ابكاراً وسائرهم مختلفين في درجات الولادة بحيث تحصل لديهم ان افضلية البكورية مؤكدة لابد منها وما جاء من سواها يعد نادراً او غير ذي قياس مضبوط . وقد كان في جملة من اسندوا اليهم افضلية البكورية كثيرون من الانبياء العظام وقواد الجيوش والملوك الذين نالوا الملك دون ارث كما انهم ذكروا عدداً عديداً من عظماء القرون الوسطى والقرن الماضي كانوا كلهم ابكاراً . ومن تخلف منهم عن البكورية لم يكن لهم قياس يقاسون عليه كأن يكونون من الولادة الثانية او الخامسة او التاسعة دون قيد ولا ضبط يعرف به من اين جاءت افضليتهم الطبيعية

ولقد كنا نود ان نتعرض لنبحث في هذا الموضوع من جهة الاستشهاد بعظمائنا العرب كما استشهد غيرنا بعظماء الافرنج وبعض الاقدمين ولكننا وجدنا مع فرط الاسف ان مؤرخينا قد كانوا من اشد المؤرخين اهمالاً للحالات الخارجة عن حد المؤرخ نفسه . فهم يذكرون لنا مثلاً الخليل والمتنبي والمعري وابا تمام والبحتري وابن سينا وابن رشد وابن الطفيل وابن خلدون وعبد الحميد وابن المقفع وكثيرين امثالهم ممن لا يعدون عظماء العرب وحدهم بل عظماء العالم كله ولكنهم مع ذلك لا يذكرون لنا منهم الا اذواتهم واعيانهم

فقط دون ذكر شيء من اخلاقهم او طرق معايشهم وعاداتهم الا ما جاء اتفاقاً دون ارادة . وعلى هذا فنحن نعرف مثلاً المتنبي ولكننا لا نعرف هل كان بكراً او كان الثاني والثالث ثم لا ندري من كانت امرأته ولا من هم اولاده وكذلك غيره ممن ذكرنا لا نعلم عنهم شيئاً مع اننا نكاد نعرف اسماء خيولهم ومطاياهم وسيوفهم وما هو ادنى من هذا بكثير وكل هذا ولا شك يعد من التقصير الذي لا يغتفر لان العظيم يجب ان يكسب غيره العظمة من طريق الاضافة ونظن ان امرأة المتنبي قد كانت اولى بان تذكر من اسم جواده الطخرور وكذلك كان الاولى ان يذكر لنا اسم جدته التي رثاها بتلك القصيدة الطنانة فان تلك المرأة التي ولدت منه رغماً لانوف حساده كما يقول قد كانت على جانب من الفضل يؤهلها لذكر اسمها ولكن العرب سامحهم الله قد احتقروا المرأة اولاً حتى احتقروا اولادها واولادهم وكل ما يتعلق باسرهم ومنازلهم ولهذا لا ندري منهم الا اعيانهم فقط وما سوى ذلك فمجهول لا نستطيع ان نأخذ منه قياساً او نستدل به على شيء . اما البكورية التي كنا بشأنها فلا نصدق بالافضلية التي لها الا من القبيل الذي ذكرناه وهو ان زيادة السن مع تساوي الاهتمام بين كل البنين مما يكسب بالطبع زيادة العقل في الناس جميعهم وليس فضل البكورية الا كفضل المتقدم بالرغم عنه او كفضل الايام بعضها على بعض كما قال ابو الطيب

هو الجد حتى تفضل العين اختها ... وحتى يكون اليوم للامس سيدا